لوْ كانَ للافلاكِ نُطقٌ او فمُ...

من ديوان المطران جرمانوس فرحات

تغنّى المطران جرمانوس فرحات بمريم العذراء وأشاد بفضائلها وأظهر في ثمرة تنها من الورع والتقوى ، من التحسّس بقدرتها العظيمة والخيّلة ، من الشعور الصادق وبساطة التعبير ما جعله قيثارةً لمريم تأخذ بالعقول بأنغامها الشجية . فرأينا ان نقتطف من ديوانه المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٦ هذه القصيدة العصماء ، البالغ ما مدح به الشعراء مريم العذراء ، وتتحف بها قراء المشرق الكرام .

لوْ كانَ للأَفلاكِ نُطقٌ أَو فَمُ ... لترنّموا بمديحكِ يا مريمُ
أَنتِ التي وردَ الالهُ مؤنّساً ... منها وفيها شأنها يتعظّمُ
وبروح قدسٍ حازَ منها جسمَهُ ... متقدّساً وبقدسهِ يتجسّمُ
أُمّ الإلهِ بهِ غدوتِ حقيقةً ... مَن شكَّ يكفُرُ والكفورُ سيندمُ
فالابنُ يأخذُ من أَبيهِ وأُمّهِ ... سرًّا وطبعاً فيهما يتقوّمُ
أَخذَ المسيحُ من الإلهِ أَبيهِ ما ... لأَبيهِ من لاهوتهِ إذ يحكمُ
ولهُ منَ البكرِ البتولةِ أُمّهِ ... ناسوتُهُ المتجسّدُ المتجسّمُ
فنراهُ مثلَ أَبيهِ ربًّا قادرًا ... هدّمَ الأَنامَ وعرشُهُ لا يُهدمُ
ونراهُ يحملُ ما لمريمَ أُمّهِ ... متألّماً وبجسمهِ يتألّمُ
بمشيئتَيهِ غدا الورَى متدبّرًا ... تُمّتْ نجا بطبيعتَيهِ آدمُ
فاذا نظرنا في يسوعَ وأُمّهِ ... فنراه فيها طابعاً إذ يختمُ
فهمٌ وعقلٌ ثمّ حسنٌ فائقٌ ... هذا بتلك وتلك فيهِ ترسمُ
فبأيّ مقدارٍ أشبّهُ عظمها ... حتى يُشبهها الإلهُ الأَعظمُ

إن قلتُ شمساً فالكسوفُ يَعيبها ... أمّا بَهاها فكلَّ يومٍ يعظُمُ
أو قلتُ بدراً فالخسوفُ يَشينهُ ... أمّا سَناكِ فكلَّ يومٍ يضرمُ
أو قلتُ نجماً فالكواكبُ كلُّها ... تَحْنو لديك باحتشامٍ يكرمُ
أو قلتُ كاروبيمَ عرشِ إلهنا ... فسموُّهم بسُموِّ شانكِ يهضَمُ
أو قلتُ ساروفيمَ طُغمةِ السما ... لولا وليدُكِ ما سَمَوْا وتعظَّموا
أو قلتُ جبرائيلَ بين جُنوده ... فنراهُ نحوكِ بالرسالة يَخدِمُ
أو قلتُ ميخائيلَ يومَ قراعهِ ... إبليسَ لكن من عُلاكِ يُترجِمُ
أو قلتُ طُغماتِ الملائكِ كلِّهم ... لكن سناهم مع بهائكِ مُظلمُ
لسنا نَرى شبهاً يُوازي حسنها ... ألا ابنَها ذاكَ الإلهُ الأعظمُ
لا غَروَ أنَّ الابنَ يُشبهُ أمَّهُ ... إنْ أشبَهَ الابنُ أمَّهُ لا يظلمُ
لاقت لهُ أمّاً ولاقَ أبناً لها ... اذ مُنطِقُ المعلول علَّةُ الفمُ
لمّا بنعمتهِ كساها فاكتسى ... منها بجسمٍ كاملٍ يستعظمُ
هيَ بالطبيعةِ أمُّهُ حقّاً وهو ... منها بنعمتهِ ابوها المنعمُ
فمتى تُناديه بابني يا أبي ... فكذا يُناديها بعكسٍ يُفهمُ
بالإتضاعِ مُشبَّهٌ فيهِ كما ... قد أشبهتهُ بنعمةٍ لو تعلمُ
ونظاهرا متشابهَيْنِ فأذهلا ... نُسطورَ ذيّاكَ اللعينُ المجرمُ
والمبدعونَ تزَّقت آراؤهم ... وبهذا الرَّدى بهلاكهم يترنَّمُ
لا يسلَمُ الشَّرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبهِ الدمُ
سكنَ الإلهُ بعرشها فكأنهُ ... في عرشهِ العالي يسودُ ويحكمُ

فرشت لهُ من قلبها وفؤادها إستبرقاً ونمارقاً تتسوّمُ
جعلت كِلاها وسادةً من تحتهِ كيلا ينامَ على وسادٍ يُؤلِمُ
وحنوُّها أحنى حَنيٌّ ضلوعها منها بمنزلةِ السَّرير يهوّمُ
حتى اذا ولدتهُ طفلاً مرضعاً بحليبها وهو المقيتُ المنعمُ
كانت تُقبّلهُ ويلزمُ صدرها متلازمَيْنِ لزومَ ما هو ألزمُ
فاذا رصدتَ بأوجِ عقلك صوتها يُشجيك لحنُ هديرها المتنغّمُ
قد سلّمتهُ نفسها وفؤادها مُلكاً لهُ وبملكهُ يتنعّمُ
فإذا رأيتَ الإبنَ يدعو أمّهُ عجباً لجهلكَ كيف لا يتعلّمُ
وإذا رأيتَ اللهَ فيها ساكناً عجباً لكُفركَ كيف لا يتألّمُ
واذا رأيتَ الصمَّ تسمعُ مَدحها عجباً لشعركَ كيف لا يترنّمُ
واذا رأيتَ المدح فيها واجباً عجباً لقلبكَ كيف لا يتكلّمُ
طوباكِ يا تاج الخلائق كلّهم فبدونكِ الإنسانُ لا يتحكّمُ
وبدونكِ الساعي المجدُّ مقصّرٌ وبدونكِ الخاطي أسيرٌ مُلجَمُ
لا علمَ لي ماذا أجيدُ لكِ الثنا وبمدحكِ المنطيقُ ألكنُ أبكمُ
هذا أقولُ ولستُ فيهِ كاذباً وجزا الكذوبِ بما يقولُ جهنّمُ
فيكِ اعادَ اللهُ ثانيَ مرّةٍ ما قد يراهُ والدليلُ هُمُ هُمُ
لولاكِ قد بادَ الورى من شرّهِ — لكن بفضلكِ ليس حقّاً يُعدِمُ
ندمَ الإلهُ الآبُ حين برا الورى لكن لأجلكِ عوضٌ لا يتندّمُ
فلذاكَ صرتِ للخلائق موئلاً يرقون نحوكِ والمديحُ السُّلّمُ
قد جئتُ نحوكِ خاضعاً ومسلّماً مُذ جاكِ جبرائيلُ وهو يُسلّمُ